القول الأتم في رد الشبهات

حول سحر النبي الأعظم ﷺ

إعداد:

د. يسري سعد عبد الله أحمد

أستاذ مساعد بكلية أصول الدين

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

القول الأتم في رد الشبهات حول سحر النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم

ملخص البحث:

يتلخص هذا البحث في رد شبهة تناولها أعداء الإسلام بالطعن والقدح في عصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى مسألة سحره صلى الله عليه وسلم مع بيان حكمة وقوعه به، وأنه لا يخل بمقام النبوة ولا يقدح في تبليغ الرسالة، موطئاً لهذا البحث ببيان ما يجوز على الأنبياء والرسل، ومسلطاً الضوء على مسألة السحر عموماً بمنظور شرعي مسنود بالأدلة والبراهين.

Abstract :

The research is a response to a suspect by the enemies of Islam who suspend the infallibility of the massanger of God (blessing and peace of God be upon him), it is the question of his magic. But that neither affect the prophet hood position nor defame the massage. In this study, the researcher explaining what is allowed about prophets and massanger, and highlighting generally the question of magic from legislative prospective with evidence and proofs.

تمهيد

الحمد لله الذي أوضح بيان السبيل، وأقام الحجة والدليل، وبعث رسله مبشرين ومنذرين إلى خلقه بإجمال الإجمال وتفصيل التفصيل، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة الجليل، من أرسله ربه رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين فكان على أكمل الصفات بنص التنزيل، وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين. **أما بعد**

فإن مقام الأنبياء والرسل مقام جليل، لا يتطرق إليه القدح أو الذم بحال من كل أمر فيه إخلال بهذا المقام العظيم الذي هو الوساطة بين الله تعالى وبين خلقه، وجلّ الله تعالى أن يضع تلك الأمانة في غير موضعها، أو أن يلقي بأعباء تلك الرسالة على من لا يليق بها، ومن أجلها بعث الله أنبياءه من أوسط قومهم نسباً، وأعلاهم حسباً، وبرأهم من العيوب الجسيمة، وأعطاهم أكمل صفات الرجولة من الشجاعة وصدق العزيمة وقوة الإرادة وشدة البأس، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، فاصطفى واختار سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون إماماً للمرسلين، وقائداً للخلق أجمعين فبلغ الرسالة على الوجه الأكمل، وأدى الأمانة على السبيل الأجزل، فلم يتطرق إليه خلل في دعوته، ولم يكن للنقص سبيل إليه في سنته فجزاه الله عنا وعن كل من آمن به خير ما جازى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته.

هذا وقد صار كثير من المتطفلين في زماننا هذا يتهجمون على مقام الأنبياء والرسل بإيراد بعض الشبهات الباطلة غرضهم من ذلك النيل من كرامة الأنبياء والرسل لاسيما خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فينخدع بكلامهم الجهال والعوام ومن لا خلاق لهم، ومن هذه المسائل التي يتناولها بعض العامة في كلامهم مسألة السحر الذي وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم فبعضهم ينفيه بالمرة، وبعضهم يشكك فيه، وبعضهم يثبته ولكن لا يدري كيف يدفع النقص عن رسول الإسلام وصفوة الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، فرأيت من خلال هذا البحث تبيين الحق في هذه المسألة الخطيرة مستنداً لما أجمع عليه العلماء المحققون والجهابذة المدققون، عسى أن يجد

الناس بحثاً علمياً مقنعاً يفيد الباحث، ويهدي الحيران الذي أمعن في الضلالة، ويرشد كذلك من كان فهمه قاصراً لشبهة دخلت عليه مع صلاح نيته، وشدة غيرته.

والبحث يتضمن إضافة لهذا التمهيد مدخلاً وثلاثة مباحث وخاتمة وأخيراً فهرساً للمصادر والمراجع وفهرساً للموضوعات.

والله أرجو أن يخرج هذا البحث على الطريقة التي ترضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وما توفيقي في كل ذلك إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المدخل:

كان من الجدير بنا قبل الشروع في بحث مسألة السحر الذي وقع للنبي صلى الله عليه وسلم أن نتطرق لذكر الجائز في حق الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام.

قال الإمام اللقاني[1] في جوهرة التوحيد.

وجائز في حقهم كالأكل ❖❖ وكالجماع للنسا في الحل

يعني أنه يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام كالأكل والشرب الحلال والنوم من كل عرض بشري ليس محرماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مزرياً ولا مزمناً، ولا مما تعافه الأنفس، ولا مما يؤدي إلى النفرة سواء كان من توابع الصحة ولا يستغني عنه عادة كما مثل، أو يستغني عنه كالجماع للنساء في حال الحل أي الجواز لا في حال حرمة ولا كراهة[2].

ومما يجوز عليهم المرض الخفيف كالحمى والصداع ونحو ذلك، وأما الأمراض المنفرة كالجذام والبرص والجنون قليلة وكثيرة أو العمى والعور وداء الفرج كالجب والاعتراض والخصاء والعُنَّة فلا يجوز في حقهم، ولم يعم نبي قط، وما ذكر عن النبي شعيب أنه كان ضريراً لم يثبت كما ذكره المحققون[3] وأما يعقوب عليه السلام فحصلت له غشاوة ولم تمنعه النظر ثم زالت، وأما بلاء أيوب فلم تعفه النفس، ويجوز في حقهم إذاية الخلق لهم بالقول والفعل ويجوز في حقهم النكاح والطلاق والبيع والشراء والجوع والعطش والنوم ولكن تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[4].

قد تبين من خلال ما تقدم أن ما يعتري الجسد من عوارض البشرية وأغيار الآدمية جائز في حق الرسل لكن ليس بإطلاق بل بشرط أن لا تؤدي هذه العوارض والأغيار إلى نقص أو قدح في مقام النبوة الرفيع، وأما أن تتسلط هذه العوارض على عقولهم وأرواحهم فهذا من المستحيلات بإجماع العلماء.

ومن هنا يمكن أن نقول أننا أسسنا قاعدة وبنية تحتية يدور حولها هذا البحث وهو أن ما حبا الله به النبي صلى الله عليه وسلم وخصه به من عقل كامل وروح طاهرة لم يكن ثَمَّ سبيلٌ للتسلط عليه لا بسحر ولا بكيد ولا بحيلة من الحيل مهما بلغ هذا التدبير من الإحكام وذلك لأن المتولي لحفظ النبي صلى الله عليه وسلم هو من لا تأخذه سنة ولا نوم. وهو القائل: ﴿والله يعصمك من الناس[٥]﴾ وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

المبحث الأول

تعريف السحر وبيان أحكامه

المطلب الأول: تعريف السحر لغة واصطلاحاً:

السحر لغة هو: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وإنما سمت العرب السحر سحراً لأنه يزيل الصحة إلى المرض، ويقال سحره أي أزاله عن البغض إلى الحب، ويطلق السحر على الفساد، ويقال أرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها [٦].

وعرفه البعض بقوله: هو تخييل وتمويه وإرادة لمالا أصل له[٧].

أما تعريفه اصطلاحاً: فهو مختص بكل أمر يخيل سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أُطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله[٨].

المطلب الثاني: الأحكام المتعلقة به:

◆ أولاً: حكم تعلمه:

ذهب العلماء إلى أن تعلم السحر أو تعليمه أو العمل به كفر والعياذ بالله تعالى إن اعتقد صحته وأنه يؤثر بنفسه، وأما إن تعلمه ليسحر به الناس فهو حرام[٩].

◆ ثانياً: حكم الساحر عند الفقهاء:

اختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذمي فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته[١٠] لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سمى السحر كفراً بقوله: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾[١١] وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحق والشافعي وأبي حنيفة، وروى قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((حد الساحر ضربه بالسيف[١٢]))، وإذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفراً وجب قتله إن لم يتب، وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً، وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس كفر لم يجز قتله، فإن أحدث بالمسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن كان عَمَد ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك. وأما ساحر أهل الذمة فقيل يقتل، وقال مالك: لا يُقتل إلا أن يَقتل بسحره ويضمن ما جنى[١٣].

المطلب الثالث: هل للسحر حقيقة أم لا؟

ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت، وله حقيقة وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام[١٤] لكون الشيء على غير ما هو به وأنه ضرب من الخفة والشعوذة كما قال تعالى: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾[١٥] وقال تعالى: ﴿سحروا أعين الناس﴾[١٦] وهذا القول لا حجة فيه إذ لا ينكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، وقد ورد السمع بذكر السحر وتعليمه ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، فدل على أن له حقيقة وهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه وعلى هذا أهل الحل

والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق(١٧).

واعلم أن أهل السنة قد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء وأن يقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلاّ أنهم قالوا إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة(١٨).

ولكن هناك سؤال يطرح نفسه وهو أنه إذا جاز خرق العادة على يدي الساحر فبماذا يتميز من النبي الصادق؟ قيل في الجواب عليه: العادة تتخرق على يد النبي وعلى يد الولي، وعلى يد الساحر، إلاّ أن النبي يتحدى بها ويستعجز سائر الخلق، ويحكى عن الله تعالى خرق العادة لتصديقه، فلو كان كاذباً لم يخرق العادة على يديه، ولو خرقها لأظهرها على يد غيره من المعارضين له مثل ما أظهر على يده، والولي والساحر لا يتحديان ولا يستعجزان الخليفة ليستدلوا على صدقهما وعلى نبوتهما، ولو حاولا شيئاً من ذلك لم تتخرق لهما العادة، أو تتخرق، ولكنها تتخرق لمن يعارضهم. وأما الولي والساحر فيفترقان من طريق آخر وهو أن الساحر يكون ذلك علماً على فسقه وكفره والولي لا يكون ذلك علماً على ذلك فيه، والساحر يكون ذلك منه على أشياء يفعلها وقوى يمزجها ومعاناة والولي لا يفتقر لذلك وكثيراً ما يقع له ذلك اتفاقاً من غير أن يستدعيه أو يشعر به(١٩).

هذا وقد اختلف العلماء في القدر الذي يقع به السحر ولهم فيه اضطراب فقال بعضهم: لا يزيد تأثيره على قدر التفرقة بين المرء وزوجه؛ لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنده وتهويلاً به في حقنا، فلو وقع به أعظم منه لذكره لأن المثل لا يضرب عند المبالغة إلاّ بأعلى أحوال المذكور، ومذهب الأشعرية أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، وهذا هو الصحيح عقلاً لأنه لا فاعل إلاّ الله تعالى، وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى ولا تفترق الأفعال في ذلك وليس بعضها بأولى من بعض، ولو ورد الشرع بقصوره عن مرتبة لوجب المصير إليه، وذكر التفرقة بين الزوجين في الآية ليس بنص في منع الزيادة(٢٠).

المبحث الثاني

تخريج حديث السحر وشرحه

المطلب الأول: تخريج حديث سحره ﷺ :

نود في هذا المبحث تخريج حديث سحره ﷺ وشرح غريب ألفاظه إذ أن هذه المسألة قد نفاها البعض محتجاً أن السحر يقدح في عصمة النبي ﷺ ، وليس كلامهم بشيء فسيتضح بعد تخريج الحديث مرتبته عند المحدثين ثم نبين أقوال العلماء في هذه المسألة. فالحديث أخرجه البخاري[٢١] ومسلم[٢٢] وأحمد بن حنبل[٢٣]. عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال: ((أشعرتِ أن الله أفتاني فيما فيه شفائي أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب[٢٤] قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم قال: فبماذا؟ قال: في مُشُطٍ[٢٥] ومُشَاقَةٍ[٢٦] وجُفِّ طَلْعَةِ ذكر[٢٧] قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان)). فخرج إليها النبي ﷺ ثم رجع فقال لعائشة حيث رجع: ((نخلها كأنه رؤوس الشياطين)) فقلت: استخرجته؟ فقال: ((لا أمَّا أنا فقد شفاني الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً)) ثم دفنت البئر.

المطلب الثاني: شرح الحديث:

مما يجدر التعرض له في هذا المبحث شرح ألفاظ حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم ليكون القارئ والباحث على معرفة بمرامي الألفاظ في هذا الحديث.

قوله: (سحر النبي ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد)

هو رجل منافق أصله من اليهود أو من حلفائهم ولم يكن على دينهم وبنو زريق بطن من الأنصار مشهور من الخزرج وكان ذلك في محرم سنة سبع من الهجرة جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد ابن الأعصم – وكان ساحراً – فقالوا له: يا أبا الأعصم أنت أسحرنا، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً، ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه فجعلوا له ثلاثة دنانير، وكانت مدة سحره ﷺ أربعين ليلة، وقيل ستة أشهر،

ويمكن الجمع بينهما بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوماً من استحكامه[٢٨].

قوله: (حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله) يُخيل على صيغة المجهول من تخيل الشيء كذا وليس كذلك وأصله الظن.

قوله: (أشعرتِ) أي علمتِ.

قوله: (أفتاني) أي أخبرني.

قوله: (في بئر ذَرْوان) بفتح الذال المعجمة وسكون الراء هي بئر بالمدينة في بستان بني زريق[٢٩].

قوله: (كأنه رءوس الشياطين) قيل أنها مستدقة كرءوس الحيات والحية يقال لها الشيطان، وقيل أنها وحشة المنظر سمجة الأشكال فهو مثل في استقباح صورتها[٣٠].

قوله: (أما أنا فقد شفاني الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً) أي خشيت أن يؤدي استخراجه إلى وقوع الناس في الشر كتذكر السحر وتعلمه وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة[٣١].

المبحث الثالث

بيان الحكمة من سحره ﷺ ورد الشبهات في هذه المسألة

المطلب الأول: الحكمة من سحره ﷺ:

قد تقدم أنه مما يجوز وقوعه بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الأعراض البشرية التي لا تؤدي لنقص في مراتبهم العلية، ولقائل أن يقول ما هي فائدة وقوع السحر به ﷺ مع أنه بمقدوره تعالى تعظيم أجره بشيء غير السحر فاعلم وفقنا الله وإياك للصواب أن السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته لأن الأنبياء يجوز عليهم من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرع كأس الحمام مما يجوز على البشر وهذا كله ليس بنقيصة فيه لأن الشيء إنما يسمى ناقصاً بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار فيها يحيون وفيها يموتون ومنها يخرجون وخلق جميع البشر بمدرجة الغِيَر فقد مرض صلى الله عليه وسلم واشتكى وأصابه الحر والقر وأدركه الجوع والعطش، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعف والكبر، وشجه الكفار وكسروا رباعيته، وسقى السم وسُحِرَ ثم قضى نحبه فتوفى صلى الله عليه وسلم ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلص من دار الامتحان والبلوى وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها، وذلك من تمام حكمته ليظهر شرفهم في هذه المقامات ،ويبين أمرهم ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم، ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى بن مريم وليكون في محنهم تسلية لأممهم ووفورٌ لأجورهم عند ربهم[٣٢].

هذا ومن الحكم أيضاً أن هذا الابتلاء الذي وقع رتب الله عليه ما فيه فائدة عظيمة للخلق كلهم إلى يوم القيامة وذلك بتعليمهم كيفية التعوذ من السحر من خلال ما ورد في سورة الفلق وسورة الناس فقد ذكر المفسرون أنها نزلت لأجل أنهم – أي اليهود. سحروا النبي صلى الله عليه وسلم[٣٣]، وفي رواية بعض التفاسير[٣٤]: إن الذي تولى

السحر لبيد بن الأعصم وبناته فمرض النبي ﷺ فنزل جبريل بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فأرسل صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله تعالى وجهه والزبير وعماراً، فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحناء، ثم رفعوا راعوثة البئر فأخرجوا أسنان المشط ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر فجاءوا بها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ المعوذتين عليها، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد عليه الصلاة والسلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، فقام صلى الله عليه وسلم كأنما أنشط من عقال.

المطلب الثاني: رد الشبهات في مسألة سحره ﷺ:

مما يجدر التعرض له في بداية هذا المطلب إيراد قول القائلين بنفي مسألة السحر من المبتدعة وما استندوا عليه ثم الرد على دعواهم الباطلة، إذ أنهم لم يستطيعوا الطعن في حديث السحر من ناحية إسناده لأنه حديث متفق عليه ومرتبته في قوة الإسناد أعلى المراتب، وأما ما اعتمد عليه المبتدعة في طعنهم فقد قال المأزري[٣٥]: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو كذلك. وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء، وهذا كله مردود لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ولا كانت الرسالة من أجلها فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر كالأمراض ففير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، وقد قيل إن المراد بالحديث أنه كان صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه وطيء زوجاته ولم يكن وطأهن، وهذا كثير ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة[٣٦].

هذا وقد قال القاضي عياض[٣٧]: يمكن أن يكون تخيل إليه الشيء أنه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد ما تخيله أنه صحيح، فتكون اعتقاداته كلها على السداد فلا يبقى لاعتراض الملحدة طريق، وبذلك تبين أن السحر إنما يسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ويكون معنى قوله في الحديث: ((حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن)) ويروي: ((يخيل إليه)) أي يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن وزوال ما أنكر قبل من حاله، فإذا دنى منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولا يتمكن من ذلك كما يعتري من سحر ذلك، ويكون معنى قول عائشة في الرواية الأخرى: ((حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل شيئاً وما فعله)) من باب ما اختل من بصره، فيظن أنه رأى شخصاً من بعض أزواجه أو غيرهن أو شاهد فعلاً من غيره، ولم

يكن على ما يخيل إليه للآفة الطارئة على بصره، لا لشيء طرأ عليه في عقله، وإذا كان هذا لم يكن فيما ذكر من إصابة السحر له وتأثيره فيه ما يدخل لبساً على الرسالة ولا يوجب طعناً لأولي الضلالة[٣٨].

هذا ومما يرد على سحره ﷺ من الشبه التي يستند عليها المبتدعة أن الكفار كانوا يعيرونه صلى الله عليه وسلم بأنه مسحور، فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوى، ولحصل فيه عليه السلام ذلك العيب فقد أجاب الإمام الفخر الرازي[٣٩] على هذه الشبهة بقوله: إن الكفار كانوا يريدون بكونه مسحوراً أنه مجنون أزيل عقله بواسطة السحر فلذلك ترك دينهم، فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده في بدنه فذلك ما لا ينكره أحد، وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطاناً ولا إنسياً ولا جنياً يؤذيه في دينه وشرعه ونبوته، فأما الإضرار ببدنه فلا يبعد[٤٠].

هذا ومن الشبه التي وردت أن تأثير السحر إنما يظهر في القلوب الضعيفة حتى قال الفخر الرازي لا يظهر تأثير السحر إلاّ على فاسق ولهذا كان غالب ما يؤثر في النساء والصبيان والجهال لأن الأرواح الخبيثة وهي الشياطين إنما تتسلط على أرواح تكون غالباً مستعدة لما يناسبها ويعكر عليه حديث سحره ﷺ وجواز السحر على النبي صلى الله عليه وسلم مع عظيم قدره ورفعة مقامه وصدق توجهه إلى الله وملازمة ورده من صلاة وذكر وتلاوة وغير ذلك وقد رد العلامة الزرقاني[٤١] على هذه الشبهة بثلاثة أوجه[٤٢].

- الوجه الأول: ما ذكره الفخر الرازي محمول على الغالب كما يؤخذ من قوله: غالب ما يؤثر، وما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك عليه وإن كان نادراً.
- الوجه الثاني: أن ما يقع بذوي القلوب الضعيفة من السحر هو سلطان السحر أي قوته وشدته، والذي وقع له ﷺ ليس بسلطانه إذ لم يغير شيئاً من عقله ولا أنقص شيئاً من عبادته مع أن الذي سحر به كان بالغاً في القوة بحيث لو فعل مثله بغيره من ضعفاء القلوب لأشتد مرضه وأقعد واختل عقله وترك العبادة.

- الوجه الثالث: أن قول الرازي لا يظهر تأثيره إلاّ على فاسق أي كل الظهور المخل بالعقل.

ومن التأويلات اللطيفة في رد هذه الشبهة ما ذكره السيد محمد بن علوي المالكي[٤٣] قال: وأقرب دليل عندي في تأكيد حفظ قلبه وعقله من السحر هو انضباط أقواله في تلك الفترة وجريانها على نسقها الطبيعي بلا اختلال ولا تناقض ولا اضطراب ولا فساد بل على الكمال والتمام والانسجام التام مع وجود أعدائه وترقبهم لأحواله، وحرصهم على حفظ أدنى كلمة أو حرف يستنقصون به حاله، ويشفون به غيظهم ولو ظفروا بمثل ذلك لنفخوا فيها وطاروا بها ولكنه لم يثبت شيء من هذا وحفظ الله نبيه صلى الله عليه وسلم وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، بل الأمر على العكس وهو أن سحره ﷺ وتأثر بعض ظاهره بذلك وسلامة قلبه واعتقاده وأقواله أكبر دليل على كمال عصمة الله له، وأن نبوته محفوظة لا تتأثر بالعوارض البشرية مهما بلغت قوتها إلاّ أن نبوته محفوظة، ومثال هذا مثال سارق دخل داراً مملوءة بالدرر والجواهر فاستطاع بحيلته أن يدخل الدار ولكنه لم يستطع أن يتناول شيئاً مما فيها من الكنوز بقوة قاهرة وسطوة ظاهرة من غير حجاب ولا باب فخرج كما دخل خائباً خاسراً[٤٤].

هذا وقد سلك النبي ﷺ في هذه القصة مسلكي التفويض وتعاطي الأسباب ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه واحتسب الأجر عند الله في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخاف من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوي فقد احتجم صلى الله عليه وسلم حين سحر، ثم جنح إلى الدعاء فدعا ربه مراراً وكل من المقامين غاية في الكمال فلذا سلكهما، ولذلك استفاد العلماء أن من أنفع الأدوية وأقوى ما يوجد من النُّشرة[٤٥] في مقاومة السحر الذي هو من تأثير الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الذكر والدعاء والتوجه إلى الله تعالى فالقلب إذا كان ممتلئاً بالله معموراً بذكره وله ورد من الذكر والدعاء والتوجه لا يخل به كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر[٤٦].

وبالجملة فإن خلاصة القول في هذه المسألة أن رسول الله ﷺ محفوظ بحفظ خاص، مرعي برعاية خاصة، ليس لأحد عليه سلطان، فهو صلى الله عليه وسلم مهبط الأنوار، ومتنزل الأسرار، وأفضل من أظلم عليه الليل وأضاء عليه النهار.

الخاتمة

وبعد هذا البحث العلمي في مسألة السحر والتي سلطت الأضواء فيها على رد شبهة طالما أرهقت أذهان كثير من الناس، وتعرضنا كذلك إلى نبذة مختصرة عن السحر ومهمات الأحكام المتعلقة به من تعريفه والأحكام التكليفية التي تعتريه، والفرق بينه وبين المعجزة والكرامة، وهل له حقيقة أم لا مستنداً في ذلك كله على الأدلة الصريحة المعضدة بأقوال العلماء وآراء الفقهاء، ثم قمت بتخريج حديث سحره ﷺ وتبين من تخريجه أنه في أعلى مراتب الصحة إذ أنه حديث متفق عليه وهذا لا يدع مجالاً للمبتدعة لنفي صحة الحديث بل ولا التشكيك في ذلك إذ أنه جاوز القنطرة، ثم شرحت غريب ألفاظ الحديث وبعض كلماته التي قد تخفى معانيها على بعض الأذهان، ثم تعرضت لرد الشبه الواردة على سحر النبي ﷺ وبينت أن السحر في حقه ﷺ من قبيل الأعراض البشرية والأمراض العادية التي لا تقدح ولا تخل بمقام النبوة الرفيع، وأن عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ تقف سداً منيعاً لكل من قصد إلحاق الأذى بالدعوة المحمدية أو تشكيك الناس في الرسالات الإلهية، ولأن الله تعالى بين ذلك في محكم تنزيله إذ يقول تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾(٤٧) وهذا يتضح لكل ممعن في النظر في أحواله صلى الله عليه وسلم من تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا مطالعة للكتب من تأمل كل ذلك لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه، وأن هذا العقل الكامل لم يكن الله ليمكن أعداء نبيه صلى الله عليه وسلم من النيل منه أو إضعافه أو تنقيصه صلوات الله وسلامه عليه في الأولين وفي الآخرين وفي كل وقت وحين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.

فهرس المصادر والمراجع

١/ القرآن الكريم.

٢/ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس شهاب الدين أحمد القسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣/ إكمال المعلم بفوائد مسلم للإمام أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، (ت ٥٤٤ هـ) دار الوفاء، المنصورة – مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، تحقيق د. يحيى إسماعيل.

٤/ بلغة السالك لأقرب المسالك للإمام أحمد الصاوي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م، خرج أحاديثه وفهرسه د. مصطفى كمال وصفي.

٥/ التعريفات للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني (ت ٨١٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٦/ تفسير الفخر الرازي المعروف بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام فخرالدين بن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري، (ت ٦٠٦ هـ)، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٧/ الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المكتبة التوفيقية، مصر، حققه عماد زكي البارودي، خيري سعيد.

٨/ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين للإمام أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٩/ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، (ت ١٢٧ هـ)، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧م.

١٠/ سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي ومعه تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للحافظ أبي العلا محمد بن عبدالرحمن المبارك فوري، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١١/ شرح أم البراهين للعلامة أحمد بن عيسى الأنصاري، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان.

١٢/ شرح جوهرة التوحيد للإمام عبدالسلام بن إبراهيم اللقاني، مكتبة دار الفلاح، حلب، أقيول، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

١٣/ شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية للإمام محمد بن عبدالباقي الزرقاني المالكي، دار المعرفة بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

١٤/ شرح الكرماني على البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

١٥/ شرح النووي على صحيح مسلم للإمام أبي كريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ضبط وتوثيق صدقي محمد جميل العطار.

١٦/ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض اليحصبي، (ت ٥٤٤ هـ)، دار الفكر بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٧/ صحيح البخاري للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، مكتبة الصفا مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

١٨/ صحيح مسلم للإمام أبي الحجاج مسلم القشيري النيسابوري بشرح الإمام النووي، دار الفكر بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٩/ عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للإمام بدرالدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ)، دار الفكر بيروت – لبنان.

٢٠/ فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، دار الصفا مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢١/ لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٢٢/ (محمد الإنسان الكامل) للسيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٢٣/ مسند الإمام أحمد بن حنبل للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، دار صادر، بيروت – لبنان.

٢٤/ النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجدالدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير، (ت ٦٠٦ هـ)، دار الباز، مكة المكرمة.

٢٥/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار الثقافة، بيروت – لبنان، تحقيق د. إحسان عباس.

هوامش البحث :

(١) الإمام برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أحد الأعلام المشار إليهم بسعة الاطلاع في علم الحديث والدراية، والتبحر في الكلام، ألف التآليف النافعة منها ((جوهرة التوحيد)) في علم العقائد نظمها في ليلة واحدة بإشارة شيخه العلامة الشرنوبي، توفي يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ١٠٨٧هـ رحمه الله تعالى. انظر مقدمة شرح جوهرة التوحيد للعلامة عبدالسلام بن إبراهيم اللقاني المسماة إتحاف المريدسي بجوهرة التوحيد – مكتبة دار الفلاح – حلب – أقيول – الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

(٢) المرجع السابق ، عبدالسلام اللقاني – ص ١٨٢ بتصرف.

(٣) انظر شرح أم البراهين للعلامة أحمد بن عيسى الأنصاري – المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان – ص٥٢.

(٤) انظر المرجع السابق، للعلامة أحمد بن عيسى الأنصاري، ص ٥٢، ٥٣ بتصرف.

(٥) سورة المائدة، آية رقم ٦٧

(٦) لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور – دار صادر بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م – ٣٤٨/٤ بتصرف

(٧) انظر التعريفات للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني ت (٨١٦هـ) دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م – ص ١٢١.

(٨) انظر تفسير الفخر الرازي للإمام فخرالدين بن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري ت ٦٠٦هـ - دار الفكر بيروت – لبنان ١٩٩٣م- ١٤١٤هـ - ٢٢٣/٢.

(٩) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين للعلامة أحمد الصاوي المالكي – دار الفكر بيروت – لبنان –١٩٩٣م–١٤١٤هـ ٧٤/١.

(١٠) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – المكتبة التوفيقية – مصر – حققه عماد زكي البارودي – خيري سعيد ٤٢/٢ نقل بتصرف.

(١١) سورة البقرة – آية رقم ١٠٢.

(١٢) الحديث أخرجه الترمذي في ١٥ – كتاب الحدود ٢٧ – باب ما جاء في حد الساحر ٦٣٢/٤ – حديث رقم ١٤٦٠ عن جندب رضى الله عنه وهو ضعيف فيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف من قبل حفظه. سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي ومعه تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للحافظ أبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري دار الفكر بيروت – لبنان ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(١٣) المرجع السابق للقرطبي ٤٣/٢، ٤٤ بتصرف.

(١٤) تفسير القرطبي ٤٠/٢ بتصرف.

(١٥) سورة طه – آية رقم ٦٦.

(١٦) سورة الأعراف – آية رقم ١١٦.

(١٧) المرجع السابق للقرطبي ٤٠/٢، ٤١ بتصرف.

(١٨) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للإمام بدرالدين محمود بن أحمد العيني ت (٨٥٥هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان ٦٣/١٤.

(١٩) انظر شرح النووي على صحيح مسلم للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ت (٦٧٦ هـ) دار الفكر – بيروت – لبنان ١٤١٥- ١٩٩٥م ضبط وتوثيق صدقي محمد جميل العطار ١٤٤/١٤ نقل بتصرف.

(٢٠) انظر ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للإمام أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي ت (٥٤٤هـ) دار الوفاء – المنصورة – مصر – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م تحقيق د. يحيى إسماعيل ٨٩/٧ بتصرف.

(٢١) في ٥٩ – كتاب بدء الخلق ١١ – باب صفة إبليس وجنوده، ١٢٢/٢. حديث رقم ٣٢٦٨.

(٢٢) في ٣٩ – كتاب السلام ١٧ – باب السحر، ١٤٣/١٤. حديث رقم ٢١٨٩.

(٢٣) في مسنده ٥٠/٦ عن عائشة نحوة.

(٢٤) مطبوب: أي مسحور كنوا بالطب عن السحر تفاؤلاً بالبرء كما كنوا بالسليم عن اللديغ. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجدالدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير ت (٦٠٦هـ) دار الباز – مكة المكرمة ١١٠/٣.

(٢٥) مُشُطٍ: هو الآلة المعروفة التي يسرح بها شعر الرأس واللحية. انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ت (٨٥٢هـ) دار الصفا – مصر – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م – ٢٦٦/١٠.

(٢٦) مُشاقَةٍ: هي الشَّعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط – المرجع السابق لابن الأثير ٣٣٤/٤.

(٢٧) جفٌ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ: الجف: وعاء الطلع وهو الغشاء الذي يكون فوقه، ويروي في جب طلعة. نفس المرجع السابق لابن الأثير ٢٧٨/١.

(٢٨) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٦٤/١٠ نقل بتصرف.

(٢٩) انظر عمدة القاري للعيني ١٧٠/١٥.

(٣٠) شرح الكرماني على البخاري – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٠١هـ- ١٩٨١م – ١٩٧/١٣.

(٣١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس شهاب الدين أحمد القسطلاني – دار الفكر – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ٢١٠/٧ بتصرف.

(٣٢) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض اليحصبي ت (٥٤٤ هـ) دار الفكر بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ٢١٠/٧ بتصرف.

(٣٣) انظر تفسير الفخر الرازي ١٩٩/٣٢.

(٣٤) انظر تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت (١٢٧هـ) دار الفكر – بيروت - لبنان ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م – ٥٠٥/١٦ بتصرف.

(٣٥) هو أبوعبدالله محمد بن عمر التميمي المازري خاتمة العلماء المحققين الأعلام المجتهدين الحافظ الواسع الباع في العلم، أخذ عن اللخمي وابن فرس والقاضي عياض. من تأليفه شرح التلقين وشرح البرهان، والمعلم في شرح صحيح مسلم، كان يفزع إليه في الطب كما في العلم، مات في ربيع أول سنة ٥٣٦هـ. انظر فهرس الأعلام مذيلاً بكتاب بلغة السالك لأقرب المسالك للإمام أحمد الصاوي – دار المعارف بمصر – ١٩٧٤م خرج أحاديثه وفهرسه الدكتور مصطفى كمال وصفي ٨٧٢/٤ بتصرف.

(٣٦) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٦٤/١٠ بتصرف.

(٣٧) هو القاضي أبوالفضل عياض بن موسى اليحصبي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب، ولد في شعبان عام ٤٧٦هـ بمدينة سبته بالمغرب، صنف التصانيف المفيدة منها ((الإكمال في شرح صحيح مسلم)) ومنها ((مشارق الأنوار))، وله كتاب سماه ((التنبيهات)) جمع فيه غرائب وفوائد، تولى القضاء بغرناطة سنة ٥٣٢هـ وتوفي بمراكش سنة أربع وأربعين وخمسمائة. انظر وفيات الأعيان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان – دار الثقافة – بيروت – لبنان تحقيق د. إحسان عباس ٤٨٣/٣- ٤٨٥. نقل بتصرف.

(٣٨) ((إكمال المعلم)) مرجع سابق للقاضي عياض ٨٨/٧ بتصرف.

(٣٩) هو أبوعبدالله محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد، الملقب فخرالدين، فريد عصره، فاق أهل زمانه في علم الكلام له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم وغيره، كانت ولادته سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالرى، وتوفي سنة وستمائة بمدينة هراة رحمه الله تعالى. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٤٨/٤- ٢٥٢ بتصرف.

(٤٠) انظر تفسير الفخر الرازي ١٨٩/٣٢ بتصرف.

(٤١) هو أبوعبدالله محمد بن الشيخ عبد الباقي الزرقاني، إمام عالم محدث، ولد سنة ١٠٥٥هـ، أخذ عن والده وعن الأجهوري والخرشي، له تآليف منها شرح على المواهب اللدنية وعلى الموطأ، توفى سنة ١١٢٢هـ رحمه الله تعالى. انظر بلغة السالك للصاوي ٨٧٣/٤، ٨٧٣.

(٤٢) انظر شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية للإمام محمد بن عبدالباقي الزرقاني المالكي – دار المعرفة – بيروت – لبنان ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م – ١٠٤/٧ نقل بتصرف.

(٤٣) هو السيد محمد بن علوي المالكي الحسني، من علماء البلد الحرام، ولد بمكة، وترعرع فيها وتلقى العلم على علمائها منهم أبوه السيد علوي، ودرس بالأزهر الشريف له مؤلفات كثيرة منها ((محمد الإنسان الكامل)) و ((الذخائر المحمدية)) تفرغ آخر عمره لنشر العلم بالبلد الحرام، توفي بمكة عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م رحمه الله تعالى. ترجمة شفوية حصلت عليها من أحد تلامذته وهو الشيخ عوض حسين السوداني.

(٤٤) انظر كتاب ((محمد الإنسان الكامل)) للسيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني الطبعة الرابعة ١٤١١هـ- ١٩٩٠م ص١٢٢، ١٢٣ نقل بتصرف.

(٤٥) النُّشرة: بالضم: ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يُظَنُّ أن به مساً من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء: أي يكشف ويزال. انظر النهاية لابن الأثير ٥٤/٥.

(٤٦) شرح المواهب اللدنية للزرقاني ١٠٤/٧ نقل بتصرف.

(٤٧) سورة الأنعام آية رقم (١٢٤).